

الفصل الخامس

قيمة الحياة^(١)

عند ما ظهر كتاب ملوك (Mollock) من خمسة عشر عاماً مضت متسائلاً عن قيمة الحياة ، كان له ولجوابه الهزلي من أن الأمر « يتوقف على حالة الكبد الصحية » رنة عظمى في الجرائد . ولكن الجواب الذي أريد أن أقدمه الليلة ليس بالهزل ، ولكنه الجدى الهام الذى يمكن أن يعبر عنه بما قال شكسبير فى إحدى مقدماته ، - « لست أبغى اليوم أن أثير فيكم نشوة الفرح والسرور ، إذ أن حالة ما بهمنا ويعنيننا من الأمور ، تدعو إلى الحزن والاكتئاب ، وهى مليئة بالخوف ومحفوفة بالصعاب » . وهنالك فى أعماق مركز من مرا كز قلوبنا توجد زاوية يلعب فيها مافى الأشياء من سر وغموض ويعمل ، ولكن بنغم واكتئاب ؛ ولست أدري ما الذى تريده جمعية مثل جمعيتكم هذه ، أو ما الذى تبغونه من الأشخاص الذين تطلبون منهم أن يتحدثوا إليكم ، إلا أن يكون رغبة فى أن ينهضوا بكم من النظرة السطحية للوجود ، وفى أن يصرفوا انتباهكم ، على الأقل لوقت قصير ، عن طنين غير المهم من الأشياء والانفعالات التى تتكون منها سلسلة تفكيرنا العادى ، وعن توجهاته واهتزازاته . لذلك أسألكم ، من غير أن أقدم شرحاً أو اعتذاراً ، أن تحولوا انتباهكم ، وهو فى

(١) محاضرة ألفت فى جمعية الشبان المسيحية فى هارفارد ، ونشرت فى (International

المادة عمل غير مقصود ، إلى ماهو أعمق من ذلك من نعمة الحياة القلبية . فدعونا
نبحث معاً في تلك الأغوار البعيدة العميقة ، علنا نعثّر في ثناياها أو في أعمالها على
جواب لسؤالنا .

يجيب كثير من الناس عن السؤال المتعلق بقيمة الحياة بطبيعة تفاؤلية تجعلهم
غير قادرين على أن يمتقّدوا أن الشر الحقيقي يمكن أن يوجد . ومن هذا النوع من
التفاؤل الكتابة المشهورة لصديقنا Walt whitman ، فلقد ملأ السرور بمجرد
الكون حياً كل قلبه وجوارحه بحيث لم يترك فراغاً لأى شعور آخر فيقول :

« ما ألد استنشاق الهواء وما أحلاه ! ما أجذل النطق ، والمشى ، والقبض باليد
على الأشياء ! وأن تكون في تلك القدسية حيث أكون ! ... ما أعجب الأشياء ،
حقاً أحقرها ! يا لروحانية الأشياء ! إننى أتغنى بالشمس ، محتجبة ، وفي كبد السماء ،
أو كما هى الآن في المغيّب ؛ إننى أخفق طرباً للعقل ولجمال الأرض وكل ما ينبت منها ..
إننى أتغنى بالمساواة ، قديمها وحديثها ، إننى أتغنى بما لا نهاية له من غاية الموجودات ،
وأقول إن الطبيعة والمظمة من الباقيات الخالدات . إننى أسبح وأمدح بصوت
كهربائى ، إذ لا أجد في الكون ماهو ليس بكألى ، ولا أرى ما يدعو إلى الحزن
والبكاء » .

كذلك روسو (Rousseau) ، حين يكتب عن التسع سنوات التى قضاها فى آنسى
(Annecy) : فهو لم يجد شيئاً يحدث عنه إلا ما كان هو فيه من نعيم وسعادة حيث يقول :
« كيف أخبر عن شيء لم يُقل ولم يفعل ، ولم يفكر فيه ، ولكنه ذيق وأحس
به فحسب ، فلم يكن هناك موضوع لهناءتى ونعيمى إلا الشعور بالهناة نفسها !

فلقد استيقظت عند شروق الشمس ، وكنت سعيداً ؛ وذهبت للمشي وكنت سعيداً ؛ ورأيت « الأم » ، وكنت سعيداً ؛ وغادرتها وكنت سعيداً . وتجولت بين الغابات وفوق منحدرات الكروم ، وسرت في الوديان ، وقرأت ، وأضمت الوقت سدى ، وتروضت في الحدائق ، وجمعت الثمار ، وساهمت في عمل البيت ، وتبعمتني السعادة في كل مكان . لأنها لم تكن في موضوع خاص ، ولكنها كانت في نفسى ، فلم تغادرني لحظة ما .

إذا أمكن جعل مثل هذه الحالة دائمة ، ومثل هذه الطبيعة عامة ، فإنه لا يكون هناك مسوغ لمثل حديثنا هذا . فسوف لا يحاول فيلسوف أن يبرهن على أن الحياة تستحق العيش فيها ، إذ أنها تكون ، إذن ، من البدهيات ، وتختفى المشكلة لسقوط السؤال لا لوجود جواب عنه . ولكننا اسنا من السحرة حتى نقدر أن نجعل هذه الطبيعة التفاضلية عامة في كل الناس وفي كل الأوقات ؛ وإنه ليوجد دائماً مع كل طبيعة تفاؤلية أخرى تشاؤمية مناقضة وناقضة لها . فهناك فيما يسمى بالجنون الدورى مظاهر من الملائخوليا تعقب أخرى من الجنون الحاد ، من غير وجود سبب ظاهرى يمكن إدراكه ؛ وكثيراً ما تبدو الحياة اليوم متألقة باسمه للشخص العادى ، وتبدوله غداً متجهمه عابسة ، تبعاً لتقلبات ما أسمته كتب الطب القديمة « تركيب الأمزجة والأخلاط » ، أو كما قالت الجرائد في جوابها الهزلى : « إنه يتوقف على حالة الكبد » . فانظر إلى طبيعة روسو غير المترنة تراها قد تغيرت في أيامه الأخيرة ، فأصبح فريسة للملائخوليا ، والكثير من الخيالات المرعبة المخيفة وللشك . ويظهر أن بعض الناس قد وجد في هذا العالم بطبيعة غير قادرة على أن تكون سعيدة ، كما أن طبيعة Walt whitman كانت غير قادرة على أن تشعر بالغم والاكتئاب . ولقد ترك لنا هذا

البعض عبارات في هذا المعنى أكثر خلوداً من عباراته ؛ وذلك مثل الذي تركه لنا معاصرنا جيمز تيمسون (James Thomson) ، في ذلك الكتاب المثير لمواطني الحزن ، « مدينة الليل الخفيف » ، الذي لا يعرفه الناس كما كان ينبغي أن يعرف ، لما فيه من جمال أدبي ؛ إنهم لا يعرفونه لأنهم يخشون أن يقتبسوا من عباراته ، التي هي في غاية من الحزن والاكتئاب ، ولكنها في الوقت نفسه مظهر رائع للصراحة والإخلاص . يصف الشاعر ، في أحد أجزاءه ، جماعة اجتمعت ليلاً في كنيسة مظلمة متسعة الأرجاء لتستمع إلى أحد الوعاظ . وما ألقى إليهم من وعظ يمز علينا الآن ذكره كله لما فيه من طول ، ولكنه ينتهي بهذه العبارات :

« أيها الإخوان المشتركون في الحياة المريرة ، إن مدة البقاء فيها ليست بالطويلة ، فلا بد أن نتجو منها بعد سنوات قليلة ، ألا يمكننا أن نتحمل تلك السنوات من الحياة ؟ ولكن إذا لم تقدر أن تستمر في تلك الحياة المريرة ، فلك أن تُنهيها عند المشيئة ، من غير أن تخشى صحواً بعد وفاة » .

« إن ما يشبه الأرغن من تموجات الأصوات ، اهتز في أرجاء الكنيسة ثم اندثروا ؛ وما مال إلى السرور منه من نفثات ، كان حزينا ورفيقا قرب انتهاء الصلوات ؛ ومع هذا فقد ظلت كنيستنا الظليلة هادئة ساكنة ، كأنها تتدبر في أن لك « أن تُنهيها عند الإرادة » . « ولا تزال أبرشيتنا الظليلة ساكنة مطمئنة ، كأنها تفكر فيما قد سمعنا من رسالة ، ومتدبرة في أن لك أن « تُنهيها عند الإرادة » ، كأنها لا تزال ترجو أن تسمع غير ذلك من عبارة ؛ فبينما هي كذلك ، إذا بصوت حاد يأتي مزججرا ، من ناحية السماء المحجبة مرعدا وقائلا : يقول الرجل الحق ، يقول الرجل الحق ، فواحسرتاه ! ليس لنا من حياة فردية بعد الوفاة ؛ ولا يعرف القضاء غضبا ولا رحمة ؛ وليس هنالك من إله : فهل أجد هناك في القبر ما أبتغي من راحة ؟ ليس لي في كل

مراحل البقاء إلا فرصة واحدة ، وهى سنوات قلائل من حياة إنسانية طيبة ، - أبهة التقدم فى الحياة الفكرية ، وجمال المنزل والأطفال والحياة الزوجية ؛ وظرف ومسررات الحياة الإجتماعية ؛ وعالم الفنون وما فيه من فتنة وجاذبية ؛ وعظمة العوامل الطبيعية ، وإضامتها لقوة الخيال الذهنية ؛ وحب الوجود ممتلئ بالصحة والقوة ؛ وإهمال الطفولة ، وعيب الشباب والفتوة ؛ وقوة الرجولة وماتربح من مادة وثروة ؛ ووقار الشيخوخة ومهدوءها بعد حياة طويلة بالصدق حافلة ؛ وكذا كل الامتيازات العليا للإنسان ، المخزونة فى الذاكرة من قديم الزمان ، والمستخرجة من منهاج الليالى والأيام عن طريق النظر إلى سلسلة الحوادث وملايين التغيرات .

« لم تسنح لى هذه الفرصة يوما ما ؛ إذ أن ماضى "اللامحدود" صهيغة خاوية بكاء ؛ ولن تناح لى هذه الفرصة يوما ما ؛ إذ أن المستقبل عندى كله هباء فى هباء .

« كانت هذه الفرصة الوحيدة عندى مضيفة من أول الأمر ، وكانت هزوا وتضايلا ؛ وكان تنفسى لتلك الحياة الإنسانية النبيلة على هذه الكرة مضنيا إلى حد جعلنى أتوق إلى موت لا معنى فيه ولا مدلول له .

« نبذنى فى الحياة هو سم قد أشرب بمرارة ؛ وينقضى نهارى فى خيالات مؤلمة ، وليلى فى أحلام مزعجة ؛ وإن حالى لأكثر سوء من مجرد خسران الأعوام التى هى كل مالى ؛ فما الذى يمكن أن يكون عزائى عن عظيم خسرانى ؟

« لا تتحدث عن الراحة ، حيث لا راحة ؛ ولا تنطق أبداً ، فهل يجعل القول القبيح حسناً ؟ فحياتنا كلها غش وخداع ، وموتنا هاوية مظلمة . فاسكت كأنك لا تقدر أن تنطق ، مظهرأ يأساً وخيبة .

« جاء ذلك الصوت الحاد من الجناح الشمالى ، قويا شديداً ، ولكنه مع ذلك فجأئى ؛

ولفترة لم يجر أحد جواباً من أية ناحية من النواحي ، فالألفاظ أمام هذه الشدائد يحق لها أن تختفي ؛ وأخيراً قل الخطيب بكل مسداجة ، برأس من ينخفض مفكر ، وعيون رطبة مبللة :

« أخى أخى ، يا إخواني المساكين ، إنه لحق وما هو بالهزل : ليس في الحياة ما هو خير لأحد ، ولكنها ستزول سريعاً ، ثم لا تكون بعد ذلك أبداً ؛ ونحن لا نعرف شيئاً عنها قبل أن نولد فيها ، وسوف لا نعرف شيئاً عنها عندما نضمنا القبور ؛ وإني أفكر في هذه الأفكار ، فتسبب لي راحة وهدوءاً » .

« إنها تنقضي بسرعة ، ثم لا تعود أبداً » و « لك أن تتخلص منها إذا ما شئت » . — تفيض هذه العبارات وأمثالها من ملاحظة قلم روسكين ، وهي في الحقيقة عزاء له ولكل من بدله هذا العالم كيفاً معتدلاً بالخوف أكثر منه ينبوعاً للسرور والرضا . وترى جيوش الانتحار ، — الجيوش التي هي في دوامها واستمرارها تشبه مدفع المساء للجيش البريطاني الذي يتبع الشمس في دورتها حول العالم ولا ينتهي أبداً — أن الحياة ليس لها من قيمة تُرغب في البقاء فيها . وعلى الرغم مما نحن فيه الآن من هدوء وراحة ، فلا بد لنا أيضاً من أن نتدبر مثل هذه الآراء ، لأننا نشترك مع المتعربين في مادة واحدة وجوهر واحد ، ونساهم في الحياة . وإن مجرد الاتحاد العقلي معهم يقضي علينا ، بل الإنسانية والمروءة تمنعنا من أن نتجاهل قضيتهم .

يقول مستر روسكين (Ruskin) ، « إذا فاجأ ، في وقت من أوقات خفة النفس وسرورها وتمتع الحلقوم في مأدبة عشاء من مآدب لندن ، أن تشققت جدران القاعة ، ودخل من بين تلك الثنايا ، وبين تلك الجماعة المنعمة ، قوم آخرون صفر الوجوه من

المسغبة، وضماف بسبب المتربة ، وقباح من الفقر وتعلوهم الذلة والمسكنة ، فوقفوا على مارق من السنادس واحداً بعد آخر ، وكل واحد بجانب مقعد من مقاعد الضيوف ، - فهل كان يرمى إليهم حتى بفتات النعائم ، وهل كانت توجه إليهم نظرة عابرة أو يفكر فيهم ولو تفكيراً سطحياً ؟ ولكن الحقائق الواقعية هي أن العلاقة بين كل فقير وكل غنى لم تتغير بسبب ذلك الحائط الذى يفصل مائدة الغنى عن سرير المريض الذى يتضور جوعاً ؛ وهى تلك المساحة الضئيلة من الأرض (وما أقلها) التى هى فى الحقيقة كل ما يفصل بين السعادة والشقاوة » .

— ٢ —

والآن ، لندخل فى موضوعنا رأساً ، دعنا نفترض أنفسنا فى مناظرة عقلية مع إنسان لم تترك له الحياة من الراحة والسعادة إلا إنعام النظر والتدبر فى القضية التى تقول « لك أن تتركها إذا ماشئت » . فما الذى يمكن أن نلجأ إليه من الأدلة والبراهين لنجعل هذا الفرد راغباً فى أن يتحمل أعباء الحياة ثانية ؟ لا يجد المسيحي العادى فى مثل هذه الحالة إلا العبارة السلبية « ليس لك أن تفعل » . إذ أنه يقول ، إن الله وحده هو رب الحياة والموت وخالقهما ، وإنه لكفر أن تحاول أن تسبق يده الباطشة القاهرة . ولكن هل يمكننا أن نجد شيئاً خيراً من هذا وأكثر منه إيجاباً ، وهل نجد نوعاً من التدبر والتأمل نثيره فى كل من يريد الانتحار ، ليرى بالفعل ، ويشعر حتى فى أشد الحالات بؤساً ، أن الحياة لا تزال ذات قيمة ترغبه هو فى البقاء فيها ؟ هنالك انتحارات وانتحارات (لا تقل فى الولايات المتحدة عن ثلاث آلاف حالة كل عام) ، وليس لى إلا أن أعترف صراحة بأن اقتراحى عاجز ككل المعجز عن علاج غالب هذه الحالات . فإن أسباب الانتحار إذا كانت ترجع إلى حالة جنونية أو دوافع نفسية

مفاجئة حادة ، فإن التدبر يعجز عن أن يقف في سبيله ؛ ويرجع مثل هذه الحالات إلى اللغز المطلق في العالم ، إلى لغز الشر ، وهو اللغز الذي لا يمكننى أن أذكر شيئاً بالنسبة له إلا إشارات مقتضبة قبيل انتهاء الوقت المحدد لى . فموضوعى الآن ، إذن ، موضوع محدود وضيق ، ولا تتعلق كلماتى إلا بتلك الحياة الميتافيزيقية المملة ، التى هى من خصوصيات رجال التدبر والتأمل . ولا شك أن الكثير منكم يحب ، إن للخير وإن للشر ، حياة التدبر والتأمل . فكثير منكم طلاب فلسفة ، ولا بد أن تكونوا قد أحسستم بالشك وبعدم اليقين ، اللذين ينشآن عن الاحتكاك الكثير بالقواعد الذهنية المجردة . وهذه ، حقاً ، هى إحدى نتائج التضلع من البحوث النظرية . إذ يؤدى الإكثار من الأسئلة مع الإقلال من المسئولية العملية ، فى غالب الحالات ، كما يؤدى الإفراط فى مذاهب الإحساس ، إلى حافة منحدر ، يوجد فى نهايته الدنيا تشاؤم وأحلام وخيالات مزعجة ، أو النظرة الانتحارية . ولكن بجانب مايسبب المرض من تفكر وتأمل ، يوجد تأمل آخر يبطل مفعول كل علاج له ؛ وإننى ذاهب الآن إلى التحدث عن ذلك النوع من الملائخوليا وكلال الحياة والضجر منها ، الذى ينشأ عن التفكير والتأمل .

دعونى الآن أقول من المبدأ ، إننى سوف لا ألجأ فى النهاية إلى ماهو أكثر غموضاً من العقيدة الدينية . فسوف لا يتضمن جدلى ، من ناحية سلبية ، أكثر من إبطال بعض الآراء التى تبقى غالباً أصول العقائد الدينية مضغوطة محصورة ؛ وسيتضمن ، من ناحية إيجابية ، إبرازاً لبعض الاعتبارات العاملة على حل تلك الأصول من عقاها وإخراجها مما هى فيه من حصر إلى طريق عادى طبيعى . ودعونى أقرر أيضاً أن التشاؤم ، فى جوهره ، مرض دينى ، ولا ينشأ ، فى كلفيته التى أنتم عرضة لها ، إلا عن مشكلة دينية لم تجد لها جواباً دينياً معقولاً .

وهناك مرحلتان للشفاء من ذلك المرض ، مرحلتان متباينتان قد ينتقل المرء بهما من النظرة التشاؤمية نحو الأشياء إلى الأخرى التفاؤلية المضيئة ، وسأبحث كلا منهما على حدة . والمرحلة الثانية هي أكثر كمالاً ومجلبة للسرور ، وهي تلائم الاستعمال المطلق لكل من الثقة والتصور الدينى . فهناك أشخاص يتمتعون بكثير من الحرية فى هذه الناحية ، وهناك آخرون ليسوا كذلك . فنجد ، مثلاً ، أشخاصاً منغمسين بجوارحهم وقلوبهم فى مظاهر البقاء ومؤملين فيها ؛ بينما نجد آخرين لا يكادون يتصورون إمكان مثل هذه الفكرة . وأولئك هم المقيدون بحواسهم ، والمحدودون بتجاربهم الطبيعية ، وإلهم ليشعرون بنوع من الإخلاص العقلى لما يسمونه « بالحقائق الواقعية » التى يحزنونها أن تسمع بتلك الرحلات الهينة إلى غير المحسوس التى يقوم بها بعض الأفراد استجابة لنداء عواطفهم . قد تكون عقول الطرفين عقولاً دينية من الطراز الأول . وقد يرجون جميعاً القبول والغفران ، مستسلمين ومؤملين فى الاتحاد والانسجام مع العقل الكلى . ولكن الأمل أو الرغبة ، عند ما يكون العقل مشغوفاً ومقيداً بالحقائق المحسوسة ، وخاصة على النحو الذى أظهرها فيه العلم ، قد تؤدى إلى التشاؤم ، كما أنها قد تؤدى إلى التفاؤل ، عند ما تبيت التصورات الدينية والثقة الدينية على أن تنجيه نحو عالم آخر أكثر جمالاً وحسناً من هذا العالم .

لذلك قلت إن التشاؤم فى جوهره مرض دينى . ولا شك أن للنظرة التشاؤمية حول الحياة أسباباً عضوية شتى ؛ ولكن أعظم سبب عقلى لها هو ذلك التناقض بين حوادث الطبيعة وبين الرغبة فى الاعتقاد بأن هناك وراء تلك الطبيعة قوة أخرى روحية ليست الطبيعة إلا مظهرها . وليس ما يسميه الفلاسفة « اللاهوت الطبيعى » إلا طريقاً

من طرق تسكين ثورة تلك الرغبة وتهديتها ؛ وليس الشعر حول الطبيعة الذى يفيض به أدبنا الإنكليزى إلا طريقاً آخر من هذه الطرق . فافترض ، الآن ، أن عقلاً من هذا النوع الأخير من النوعين اللذين ذكرناهما قد تعلق بكل ما يتبع التمسك بهذا النوع وشغف به ، وقبل حقائقه كما هى وكل وجدها ؛ وافترض ، علاوة على ذلك ، أنه يرغب رغبة قوية فى القربان المقدس ، ولكنه يدرك كيف أنه يكاد يكون محالاً بالنسبة له أن يشرح نظام الطبيعة لا من ناحية لاهوتية ولا من ناحية شعرية ، - فما هى النتيجة التى يمكن أن ترجى من مثل هذه الحالة إن لم تكن تضارباً وتناقضاً نفسياً ؟ ذلك التناقض النفسى (كتناقض) يمكن علاجه بأحد طريقتين : فإما أن تزول الرغبة فى شرح الحقائق الواقعية شرحاً دينياً ، وتبقى تلك الحقائق بنفسها ؛ وإما أن تكتشف حقائق أخرى مكملة تسمح للحقائق الأولى أن تفهم فهماً دينياً ، أو يمتد فى حقائق من هذا النوع . وهذان الطريقتان هما مرحلتا العلاج ؛ وهما مرحلتان للتخلص من التشاؤم أشرت إليهما سابقاً ، وأرجو أن يجعلهما البحث الآتى أكثر وضوحاً .

فإذا بدأنا بالطبيعة ، فلا شك أننا نميل ، إذا ما كنا متدينين ، نحو مشاركة أورليوس (Marcus Aurlus) فى قوله : «أيها العالم ! إننى أرغب فى كل ما ترغب فيه» . وتحدثنا كتبنا المقدسة وتقاليدنا عن إله واحد ، خلق السموات والأرضين ، ونظر إليها فوجدها جميلة طيبة . ولكننا نجد ، عند المعرفة عن كسب ، أن السطوح المرئية للسموات والأرض لا تطاوعنا فى محاولتنا صهرها إلى وحدة عقلية . إذ يوجد بجانب كل ظاهرة يمكن أن نمتدحها أخرى أو آخر مناقضة لها ومزيلة لكل ما قد يكون

لها من أثر ديني على العقل . فالجمال والقيح ، والحب والكره ، والموت والحياة ، أمور متلازمة ومرتبطة برابط لا ينفصم ؛ وبذل تلك الفكرة القديمة التي تملأ النفوس حرارة وقوة من إله محب للإنسان ، تحيم علينا فكرة أخرى من قوة جبارة باطشة ، لا تحب ولا تبغض ، بل تطوى الأشياء طياً بلا قصد ولا غرض ، وتقذف بها جميعاً إلى مصير واحد محتوم . تلك فكرة في الحياة غريبة متشاعة ، ومزعجة خطيرة ، ولقد أوجدنا نحن ما فيها من سم زعاف باعتناقنا لشيئين لا يمكن أن ينسجما أبداً ، - باعتقادنا ، أولاً ، أنه لا بد أن يكون هناك نفس كلية شاملة ، وباعتقادنا ، ثانياً ، أن ماجريات الحوادث في الطبيعة مظهر حقيق ومميز دقيق مطابق كل المطابقة لتلك النفس الكلية . وإن ذلك النوع الخاص من الموت في الحياة ومن الشا كل المولدة للجنون لا يمشي ولا يفرخ إلا بسبب ذلك التناقض الذي يوجد بين تلك النفس الكلية المحيطة بنا والمتحركة فيها ، والتي يجب أن يكون بيننا وبينها بعض الاتصال ، وبين صفات تلك النفس وأعراضها كما تظهرها الحوادث الطبيعية . ويقول كرلايل (Carlyle) في الفصل المسمى The Everlasting No من كتابه المسمى Sartor Resartus نقلاً عن تيوفلدروخ Teufelsdröckh « إنني عشت في نوع دائم من الخوف ، يدعو إلى الاضطراب ويشير الجبن ، ولكنني لست أدري مم هذا الخوف ؛ فيخيل إلي كأن كل ما في السماء من فوق وكل ما في الأرض من تحتي يؤذيني ويؤلني ، وكأن السموات والأرضين ليست إلا فكين لا نهائيين لغول قتال ، حيث أقف بينهما مضطرباً وجلاً ومنتظراً مصيري المحتوم من هلاك وازدراء » .

تلك هي المرحلة الأولى من الملائخوليا النظرية . ولا يمكن أن يكون الحيوان عرضة لهذا النوع من الجنون ؛ ولا يصاب به أيضاً الإنسان غير المتدين . إنها رعدة

العليل الناشئة عن الإخفاق في تحقيق بعض المطالب الدينية ، وليست بالضرورة نتيجة للتجارب الحيوانية . وكان من الممكن لتيوفلدروخ نفسه أن يغير من هذا الاتجاه ، ويواجه مافى التجارب من تشويش واضطراب ولفظ ، إذا لم يكن من قبل ضحية لشقة عمياء فيها ولعاطفة حادة نحوها . فإذا كان قد واجهها كجزئيات من غير أن يفكر في أنها مظهر لواحد كلّى ، متجنباً المرير منها ، ومنغمساً في كل ما حلاً منها ، ولا بساً لكل حالة لبوسها ، فإنه كان من الممكن له أن يصل إلى غاية أخف من هذه وأسهل ، وأن يشعر بأنه لا ضرورة له في أن يملأ الجوع عويلاً وبكاء .

أيمكن أن نقول ، إذن ، إن حالة الاستخفاف والاستهانة وعدم المبالاة هي أكثر الأدواء نجاحاً في علاج متاعب الحياة وآلامها ، وهي المخدر العملي ؟ لا ! ليس الأمر كذلك ، إذ أن هناك شيئاً في نفس تيوفلدروخ وفي نفوسنا جميعاً ، يخبرنا بأن هناك نفساً كلية ندين لها بالطاعة والإخلاص ، ولا بد أن نكون بالنسبة لها جادين . وهكذا يبقى المرض النفسى والتناقض من غير علاج ؛ لأن الطبيعة في ظاهرها لا ترينا نفساً كلية مثل هذه ، وقد افترضنا أن بحثنا الآن محصور في الطبيعة فحسب ، فليس لنا أن نذهب إلى ما وراءها .

لست الآن أتردد في الاعتراف أمامكم بأن هذا التناقض يبدو مستلزماً بالضرورة إخفاقاً لعلم اللاهوت الطبيعى إذا ما أخذ بنفسه في سهولته وبساطته . ولقد كان هناك عصر يسمح لاتباع ليبنتز (Leibnitz) ، المغطاة رؤوسهم بالهول من الشعر المستعار أن يكتبوا مقالات مؤيدة للقول بوجود الله ، مستندين فيها إلى الانسجام التام الذى يروونه موجوداً بين أجزاء العالم وإلى النظام الحكّم المتحكّم فيه ، ويسمح لهؤلاء الذين تربوا على الخضر من موظفى الكنائس الرسمية أن يبرهنوا بما فيهم من صمامات ومفاصل على وجود « مدبر خاق وعقلى لهذا العالم » . ولكن قد انقرضت تلك المصور ؛ ونحن ، الآن في القرن التاسع عشر ، ولنا نظريات تطورية

وفلسفة ميكانيكية ، ونعرف الطبيعة جيداً وبلا تحيز ، نرفض أن نعبد إنها تكون هذه الطبيعة مظهراً دقيقاً لكل ماله من صفات . حقاً ، إن كل ما نعرف حول الحسن والواجب لم ينشأ إلا عن الطبيعة ؛ ولكن الشأن كذلك أيضاً بالنسبة لكل ما نعرف حول الشرور والآثام . فالطبيعة المشاهدة مطاطة ومحايده ، وقابلة للتشكل بأشكال خلقية شتى ، وليست عالماً خالقياً واحداً . ونحن لاندين بالطاعة لعالم قَبَّ مثل هذا ؛ ولا يمكننا أن نكون معه وحدة خلقية ؛ ولأننا مضطرين في علاقاتنا به أن نطيع أوامرهم أو أن نعصيهم ، وألا نتبع من قوانينه إلا ما تولى به الحكمة ، وهو الذي يساعدنا على أن نحقق أغراضنا الخاصة . فإذا كانت هناك ذات مقدسة ، فلا يمكن أن تكون هذه الطبيعة مظهرها المطلق للإنسان . فلا بد أن نقول ، إذن ، إن هذا العالم ليس مظهراً لنفس كلية ، أو إنه مظهر ناقص لها ؛ أو « كما تقول كل الأديان العليا » ما نسميه طبيعة مشاهدة ، أو هذا العالم ، لا بد أن يكون حجاباً ، أو مظهراً سطحيًا لعالم آخر غير مرئي .

إنني لا بد أن أعتبره ربها (ولو أن بعض الطبائع الخيالية تعتبره خسارة لاتعوض) أن أوهم الطبيعيين من عبادة إله طبيعي ، موصوف بهذا الوصف فحسب ، قد بدأت تفقد مالها من قيمة وقوة في نظر العقل المثقف . وإذا ما كنت في الحقيقة معبراً عن رأي الخاص تعبيراً مطلقاً من كل الشروط والقيود ، فإنني أقول (على الرغم من أنه قد يبدو ككفر عند بعض الناس) إن المرحلة الأولى للحصول على إدراك سليم وعلاقات مستقيمة مع العالم هي الثورة ضد وجود إله من هذا النوع . وتلك الثورة هي في جوهرها الثورة التي يصفها Carlyle في الفصل الذي اقتبست منه سابقاً فيقول :

« لماذا تبكي دائماً وتنوح ، مثل الجبان ، وترنج خائفاً مضطرباً ؟ أيها الإنسان

المحتقر ! أليس لك من قلب ؟ ... ألا تقدر أن تتحمل كل ما يأتي به الدهر ، متجاهلاً كل صروفه ، فتطأ النار بقدميك ، وإن كانت هي تلتهمك ؟ دع ما يكون يكون ؛ فساوأجهه وأتحمده ! وعندما فكرت على هذا النحو ، جرى شيء من الحرارة كأنه ينبوع من نار في كل عروقي ودمي ، فنفضت عن نفسي ذلك الخوف المحتقر ، ونجوت منه إلى الأبد ...

« هكذا كان يصلصل اللامرمدى بقوة في كل أدوار حياتي ، وفي نفسي ؛ وعندئذ وقفت نفسي كلها ، بما فيها من عظمة طبيعية مخلوقة لله ، وسجات احتجاجها . ذلك الاحتجاج ، الذي هو أهم عمل في الحياة ، قد يسمى بذلك النوع من الغضب والتحدى الذي يتحدث عنه السيكلوجي . فقال اللامرمدى بعد ذلك : استمع ، إنك لطريد شريد منبوذ ، والكون كله لي ؛ ولكن نفسي الآن كلها أجابت قائلة : إنني لست لك ولكنني حرة طليقة ، وإنني أبفضك أبداً ! ومن تلك اللحظة ، بدأت أن أكون رجلاً » .

ويذهب صديقتنا تمسون (James Thomson) في نفس الطريق ويقول :

« من هو أكثر الناس شقاءً وغماً في ذلك المكان الحزين ؟ إنني أعتقد أنه أنا ؛ ولكنني أفضل أن أكون على هذا الوضع من التماسه والشقاء على أن أكون هذا الذي أوجد مثل هذه المخلوقات لتحط من قدره وتشتينه . فإن أكثر الأشياء قبحاً وخسة لا بد أن يكون أقل قبحاً وخسة من هذا الذي أوجدها ، سيداً كان أو إلهاً . يا موجد الخطايا والخطوب ، إنك ممقوت خبيث ، عنيد حقود ، إنني أقسم أن الأشياء لم تطو ولم تنشر بقوتك ، ولا أن كل الأضرحة قد بنيت لمظمتك . أوليس لي أن أفترض أنه من الخطأ الفاضح المشين أن يوجد في مثل هذا الكون رجال من هذا النوع ؟ » .

إننا هنا نعرف جسد المعرفة ونشاهد مناظر هؤلاء الأشخاص الذين اعتزوا بتخليص أنفسهم من الاعتقاد في إله أسلافهم الكلوينيين ، - الإله الذى خلق الجنة والحية ، وجعل النار الخالدة. فوجد بعضهم بعد ذلك آلهة أكثر شفقة ورحمة ليعبدوها ، وارتد آخرون عن جميع الأديان ؛ ولكنهم جميعاً يؤكدون لنا أن التخلص من زغل التفكير فلا تشعر باحترام أو تقديس نحو هذه المحالات من الأوثان يسبب ما لا يقدر من السعادة النفسية . وجعل روح الطبيعة وثناً ، وعبادتها ، هو كذلك زغل وضلال فى التفكير ؛ وذلك الضلال فى التفكير يقود النفوس المتدينة ، والتي هى مع ذلك علمية ، إلى ملأنخوليا فلسفية ؛ والمرحلة الأولى للنجاة من ذلك الخبل الفلسفى هى فى إنكار ذلك الوثن ؛ ومع سقوطه لا بد أن تزول كذلك حالة البكاء والجن والعويل . أما الشر نفسه ، إذا ما نظر إليه وحده ، فإن مجهود المرء نحوه محدود ، لأن علاقته به ليست إلا علاقة عملية . فسوف لا يبدو كطيف ، وسوف يفقد أهميته كلغز وكشبح مخيف ، إذا ما هاجم العقل أمثله الفردية كلا على حدة ، ولم يفكر فى صدوره عن قدرة واحدة .

هنا ، إذن ، وفى مرحلة مجرد التحرر من ربة أو هام الوحدة ، يجد المفكر فى الانتحار جواباً مشجعاً لسؤاله عن قيمة الحياة . فهناك فى الإنسان بعض القوى الفرزية التى لا تعمل عملها الصحيح إلا إذا طويت المسائل الميتافيزيقية والمسئولية الانتهائية . وإن التيقن بأنه يجوز لك أن تخرج من الحياة أى وقت شئت ، من غير أن تكفر بذلك أو يعتبر عملاً عملاً مرعباً مهولاً ، هو نفسه فرجة عظمى وتخفيف . ولا يعتبر التفكير فى الانتحار الآن تحدياً خاطئاً أو حصراً وضيقاً . ويقول تمسون (Thomson) ، فى هذا الصدد « تلك الحياة القصيرة هى كل ما يجب أن نتحمل ؛ فإن أمان القبر وسلامه دائماً مضمون ؛ إننى أفكر فى هذه الأشياء فتطمئننى وتريحنى » . وإننا ، مع

ذلك ، يمكننا أن نتحملها أربعا وعشرين ساعة أخرى لئلا نرى ، على الأقل ، ما في جرائد القذ أو ما يأتي به البريد من أخبار .

ولكنه يمكن أن تثار فينا قوى أخرى أكثر عمقا من مجرد تلك القوى المحبة للاستطلاع؛ لأنه حين تختفي دوافع الحب والإعجاب ، تبقى دوافع البغض والكراهة قائمة لتتجاوب مع ما يناسبها من الحالات . وإن الشر الذي نشعر به من أعماق قلوبنا ونخافه هو ذلك الشر الذي يمكننا الآن أن نساعد على استئصاله ؛ لأن مصادره الآن ، حيث إنها ليست « جوهرآ » ولا « نفسآ » ، قانية محدودة ، ويمكننا أن نستأصلها واحدة بعد الأخرى . وإنه لمن العجيب حقا أن الشدائد والحن لا تزيل الحب في الحياة ولا تضعفه ؛ بل بالعكس ، يظهر أنها تزيد من الحب فيها والتمسك بها . إن دواء الملائخوليا هو الامتلاء والاكتظاظ . والحاجة والجهاد هما اللذان يثيراننا ويلهماننا ؛ وساعة الانتصار هي التي توجد وقت الفراغ . ولذا لم تظهر عبارات التشاؤم ، التي ذكرت في الإنجيل ، من اليهود وهم في التيه ، ولكنها ظهرت في أيام عظمة سليمان وعزه . ولما سقطت ألمانيا تحت حوافر جيوش نابليون أظهرت أعلى نوع تفاؤلي ومثالي رآه العالم من الأدب ؛ ولم يتقلب التشاؤم في فرنسا على هذا الوضع الذي نشاهده إلا بعد أن وزعت الملايين هناك بعد ثورة سنة ١٨٧١ . وليس تاريخ شعبنا إلا بياناً طويلاً عن السرور الذي ينشأ عن الجهاد ضد الخطايا والأمراض النفسية . انظر إلى حالة رجال Waldenses^(١) ، الذين كنت أقر عنهم قريبا ، لتبين مقدار ما يمكن أن يتحملة الأقوياء من الرجال . إذ صدر أمر من البابا إنوسنت الثامن عام ١٤٨٥ بقتلهم جميعاً ، وغفر الخطايا الكنسية لكل من يحمل السلاح ضدهم وبرأه من آثامه وذنوبه ،

(١) هي جماعة دينية خرجت على تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية زعيمها Petrus Waldus . ولذا نسبت إليه . وظهرت في ليون حوالي ١١٧٩ بعد الميلاد . ومذهبها في جوهره كالذهب البروتستانتي . ولقد قاست من أجله كثيرا من الاضطهاد والتعذيب والتنكيل ، أشار المؤلف إلى جزء ضئيل منه .

وأعفاء من كل عيب وعهد ، وأباح له تملك كل ما جمع من مال ولو عن طريق غير مشروع ،
ووعده أخيراً بأن يغفر خطايا كل من قتل زنديقاً منهم .

يقول أحد كتاب Vaudois ^(١) ، « ليس هناك من مدينة في Piedmont لم يقتل
فيها أحد إخواننا . فأحرق أحدهم حياً في Susa ، وآخر ، وكان له ثمانون عاماً في
Sarcena ؛ وشنق ثالث في Coldi Meano ؛ وقطعت أحشاء آخر وأخرجت أمعاؤه
في Turin ؛ وكذا فعل مع آخر ، إلا أنه وضع في جوفه بعد ذلك قط زيادة في
التنكيل به ؛ ودفن واحد وهو على قيد الحياة في Rocca Patia ؛ وقضى على آخر
بنفس القضاء في San Giovonni ؛ وغلت يدا رجل ورجلاه إلى عنقه وترك على
تلوج Sarcena ليموت برداً وجوعاً ؛ وطمعن آخر بالسيف ، وملئت جروحه بالزئبق
ثم ترك ليموت من الألم في Fenile ؛ وقطع لسان آخر في Babbo ، لأنه وجد يسبح
بحمد الله ؛ ومات آخر بالاحتراق ، فقد أدخل الكبريت بالقوة في لحمه ، وفي أنفه وفي
فيه ، ووضع تحت أظافره وغطى به سائر جسده ثم أشعلت النار فيه ؛ وملئ فم آخر
بالبارود ، ثم أشعلت فيه النار فانفجر وتمزق الرجل إرباً ؛ ... وشق جسم امرأة من
الرجلين إلى قرب الصدر ثم تركت على قارعة الطريق بين Lucerna و Eyral ؛
ووضعت حربة في أسفل أخرى ثم حملت عليها من San Giovonni إلى
La Torre » ^(٢) .

(١) م جماعة Waldenese المتحدث عنهم .

(٢) الأسماء المذبذبة هي كما ذكرت في الأصل :

Jordan Terbano; Hippolite Rossiero; Michael Goneto; Vilermin
Ambrosio; Hugo Chiamps; Peter Geymaroli; Maria Romano; Magdalena
Fauno; Susanna Michelini; Bartolomeo Foche; Daniel Michelini; James
Baridari; Daniel Rovelli; Sara Rostignol; Anna Charbonnier.

وكثير من هذا القبيل . وفي عام ١٦٣٠ أهلك الطاعون نصف جماعة Vaudois وكان من بينهم خمسة عشر راعياً من رعاة الكنيسة، وكان عددهم من قبل سبعة عشر راعياً . ولقد ملئ الفراغ الذي تركه هؤلاء الرعاة من Geneva و Dauphiny ، وكان لازماً على البقية من تلك الجماعة التي لا تعرف اللغة الفرنسية أن تتعلمها لتمكن من فهم الطقوس الدينية ومن تأديتها . ولقد نقص عددهم مراراً بسبب الاضطهاد المستمرة، ونزل من خمس وعشرين ألف نسمة إلى ما لا يزيد عن أربعة آلاف من الأشخاص . وفي عام ١٦٨٦ خير Duke of Savoy الثلاثة آلاف الباقية منهم بين ترك دينهم وبين الهجرة من البلاد، ولما رفضوا هذا وذاك ، كان عليهم أن يستعدوا لمواجهة الجيوش الفرنسية و جيوش Piedmonts فحاربوا حتى لم يبق من قوتهم المحاربة من غير قتل أو أسر إلا ثمانون رجلاً ، ولما استسلموا أرسلوا جميعاً إلى سويسرا . ولكن عاد منهم ما يربو على الثمانمائة جندي عام ١٦٨٩ ، ليفتحوا وطنهم ثانية تحت إمرة رؤسائهم الروحانيين وبتشجيع وليم البرتقالى (William of Orange) . فحاربوا حتى وصلوا إلى Bobi ، وفقدوا حوالي نصفهم في الستة شهور الأولى ، ولكنهم صمدوا الكل ما أرسل لهم من قوى ؛ حتى وهبهم في النهاية Duke of Savoy شيئاً من الحرية بعد أن نقض عهده مع ذلك الرجس من الدمار والحرب لويس (Louis) الرابع عشر؛ ومن ذلك الحين زاد عددهم وضاعفوا منه في وديان جبال الألب الجرداء حتى يومنا هذا .

فهل تقارن آلامنا وأحزاننا بهذه ؟ أليس مجرد ذكر حروب مثل هذه أثرت بعناد وإصرار ضد نفر قليل مثل هؤلاء كافيًا أن يملأ قلوبنا حزماً وعزماً وتصميماً على أن نقف متكاتفين ضد مافيتنا من قوى على فعل الشر ، - ضد نظم رجال السياسة ، ورجال النهب وقطاع الطريق ، والبقية التي هي على هذه الشاكلة ؟ إن الحياة تستحق العيش فيها، على الرغم مما تأتي به من محن وإحزن ، مادام ينتهى مثل هذا الصراع على النحو الذي

نبنى ، ويمكننا من أن نضع أرجلنا على أعناق الظالمين . فلك أن تتوجه ، إذن ، إلى مرید الانتحار في عالمه المفروض أنه مليء بالشروع والآثام - تتوجه إليه باسم الشر نفسه الذي جعل قلبه مريضاً ، وتسأله أن ينتظر حتى يرى نهاية دوره من الجهاد . وليس قبوله الاستمرار في الحياة ، الذي تسأله أن يفعله في هذه الحالات الخاصة ، ذلك النوع من الاستسلام الصوفي الذي ينصح به الزهاد من معتنقي الأديان المتواضعة : إنه ليس استسلاماً في ذلة وخنوع وخضوع ، ولكنه ، بالعكس ، تسليم ناشئ عن شجاعة وعزة . ومادام أحد الشرور المتعلقة بك التي قد تبعثك على الانتحار لا يزال قائماً لم يعالج ، فإن ذهنك سوف لا يشغل بالشر الذهني العام . فإن ما تتطلبه من نفسك من خضوع لحقيقة الشر العام ، واستسلامك الظاهري إليه ، ليس له معنى في هذه الحالة إلا اعتقاداً بأن الشر العام لا يعنيك ولا يهتك حتى يزول كل ما يتعلق بك من شرور خاصة وحتى يتقرر المصير فيها . والتحدى من هذا النوع ، المصاحب بإظهار للتفاصيل وإبراز لها ، هو تحدى لا يقدر أن يفعله إلا هؤلاء الذين لم تضعف قوى غرائزهم العادية ؛ وهو الذي يزيل منك كل تفكير في الانتحار ويجعلك مستمعداً لأن تواجه الحياة ثانية بكثير من الرغبة والاهتمام . وإن عاطفة الشرف عاطفة خرافة نافذة . فعند ما ندرك ، مثلاً ، كيف أن عدداً وفيراً من الحيوانات المسكينة التي لم تقترف ذنباً يقاسى ويذبح وتنتهى حياته ، لا شيء سوى مساعدتنا على النمو ، وجعلنا ممتلئى الجسم سعداء ، وبذا نتمكن من الجلوس هنا والتحدث في مثل ما نتحدث به الآن من موضوعات ، فإننا نبدأ نرى علاقتنا مع العالم الخارجى في ضوء آخر ، وفي شكل أكثر جدية وأهمية . وكما قال أحد الفلاسفة : « ليس قبول حياة سعيدة على هذا الأساس يتضمن شيئاً من الشرف ؟ » ، أو لسنا مضطرين أحياناً أن نتحمل كثيراً من

الشدائد ، ونضحى بمصالحنا ، من أجل الآخرين الذين تتوقف عليهم حياتنا ؟ ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد إذا كان للمرء قلب عادى معتدل .

من ذلك يتبين أن غرائز حب الاستطلاع والجهاد والشرف قد تجعل الحياة تستحق ، على أسس طبيعية محضة ، أن تقضى وأن يبقى فيها ، من يوم لآخر ، كل هؤلاء الذين خلصوا أنفسهم من براثن الميتافيزيقية لينجوا بذلك من مرض السوداء ، وهؤلاء الذين أصرروا ، في الوقت نفسه ، على ألا يعترفوا بأنهم مدينون للدين أو لمطالبه الإيجابية بشيء ما^(١) . قد يقول بعض منكم ، إنها مرحلة قصيرة لم تبلغ الغاية ؛ ولكن لا بد أن تعترفوا بأنها ، على الأقل ، مرحلة قديمة ؛ وليس لأحد أن ينتقص من هذه الغرائز ، لأنها خير مالنا من آلات طبيعية ، ولأن الدين نفسه لا بد أن يتوجه إليها في النهاية بمطالبه الخاصة .

- ٤ -

وحين أرجع الآن إلى ما يمكن أن يقوله الدين في هذه المسألة ، فإنى بذلك أدخل في الجزء المهم من موضوع حديثي . دلت كلمة الدين في تاريخ الفكر الإنساني على كثير من المعاني ؛ ولكنى حين أستعملها الآن أقصد بها ما هو فوق الطبيعة ، مقررأ بذلك أن ما يدعى بنظام الطبيعة الذى يتضمن عالم التجربة ليس إلا جزءاً من مجموعة الكون ، وأن هنالك وراء هذا العالم المشاهد عالمأ آخر غير مشاهد لانعرف الآن عنه شيئاً إيجابياً ، ولكننا ندرك أنه ليس لحياتنا هذه من قيمة إلا فى علاقتها وارتباطها به . وليس للعقيدة الدينية عندى من معنى (مهما يكن شأن ماتضمنته من تفاصيل)

(١) يعنى به الدين الطبيعى بدليل السباق والنساق .

إلا الاعتقاد في وجود نظام خفي غير مشاهد ، يمكن أن توجد فيه حلول لطالما سم ذلك النظام الطبيعي . ترى الأديان العليا أن هذه الدار ليست إلا مدخلاً وطريقاً لعالم آخر أكثر منها حقيقة وأدوم بقاء ، وأنها ليست إلا دار عبر ومحن ، أو خلاص وافتداء . وترى أنه من الشروط الأساسية للوصول إلى تلك الدار الآخرة أن يعنى الإنسان نفسه بقدر ما عن تلك الدار الفانية وألّا يكرس كل همه وجهوده عليها . وإن النظرية القائلة إن العالم المادى ، عالم الماء والهواء ، حيث تشرق الشمس ويغيب القمر ، هو العالم المطلق الذى أراد الله تعالى ، نظرية لا توجد إلا فى الأديان القديمة جداً ، مثل دين القدامى من اليهود . وهو ذلك الدين الطبيعي (البدائى ، على الرغم من أن كثيراً من الشعراء والعلماء ، الذين تتغلب عواطفهم على حدة ذهبنهم ، يحاول أن يظهره فى نغمة مناسبة لبعض الآذان المعاصرة) الذى ، كما أخبرت سابقاً ، قاسى كثيراً ثم أخفق فى نظر جماعة من الناس - أعد نفسى واحداً منهم - لا يزالون فى ازدياد مطرد . إذ لا يقدر أن يتبين هؤلاء الأشخاص فى العالم المشاهد ، كما يراه العلم ، معنى واحداً منسجماً ، أو قصداً . بل هو مجرد طقس ، كما سماه رايت Chauncy Right ، فاعل ومبطل من غير غرض أو قصد .

وإنى الآن آمل فى أن أجمعكم تشعرون معى ، فيما تبقى لى من وقت قليل ، بأن لنا الحق فى اعتقاد أن العالم المادى ليس إلا علماً ناقصاً ، وأن لنا أن نكمله بنظام آخر روحى خفى ، مادام افتراضه يحجب إلينا هذه الحياة ويجعلها تبدو مستحقة لأن يظل المرء منغمساً فيها . ولكن ذلك الافتراض أو تلك الثقة قد تبدو لبعض منكم عملاً صوفياً غير علمى ، لذلك لا بد لى من أن أحاول أن أضعف تلك الناحية التى تظنون بها أن العلم لا يسمح لنا بمثل تلك الثقة .

هنالك بين الطبائع الإنسانية عقول مادية وطبيعية لا تقبل من الحقائق إلا ما كان

محسوساً . والمعشوق لأوحد لهذا النوع من العقول هو ذلك البناء المسمى « بالعلم » ؛
وحب كلمة « عالم » هو أحد الدلائل التي تعلم بها الشغوفين به ؛ وأقرب الطرق عندهم
وأسهلها لقتل مالا يؤمنون به من آراء هو أن توصف بأنها آراء « غير علمية » ؛
ولكنه لا بد من الاعتراف بأنه ليس هناك أدنى سبب لهذا . حقاً لقد قفز العلم
في الثلاثمائة عام الأخيرة قفزات عظيمة يفخر بها ، ومدّ من أفق معرفتنا للطبيعة مدّاً
عظيماً في مجموعها وفي تفاصيلها ؛ ولقد أظهر رجال العلم ، كطبقة ، فضائل جمة يغبطون
عليها . لذلك ليس عجباً أن ترى رجال العلم قد أُغرموا به وجنّوا في حبه . ولقد سمعت
عدة من المدرسين في هذه الكلية يقولون إن العلم قد وجد الأصول والقواعد النهائية
للحقيقة ، ولم يترك للمستقبل إلا النظر في التفاصيل . ولكن أدنى تدبر وتأمل في
الحالات الواقعية بين ضلال مثل هذه الفكرة وبمدها عن الصواب . إذ أنها لا تصدر
إلا عن شخص ضعفت عنده قوة الخيال العلمية ، ولا تكاد تُتصور من آخر
له اتصال ما بالعلوم . فانظر إلى مآثر في عصرنا من نظريات جديدة محضة ، وإلى
المشاكل التي ظهرت اليوم ولم يفكر فيها من قبل ، ثم انظر إلى مجال العلم الضيق ؛
إنه بدأ من أيام غاليليو (Galileo) ، من مدة لا تزيد على ثلثمائة سنة . وهي مدة كان
يمكن أن ينقل إلينا فيها العلم أربعة من المفكرين فحسب ، آتياً أحدهم تلو الآخر
ومخبراً له عن الاكتشافات العلمية التي حدثت في عصره . ومن هذه الناحية ، تتمكن
جماعة أقل من جماعتنا هذه ، جماعة لا يزيد عدد أفرادها على مائة وعشرين ، إذا كانت
متعاقبة في الزمن وصح لكل فرد منها أن يتحدث عن عصره ، أن تصلنا بالمصور
المظلمة للنوع الإنساني وبتلك الأيام التي لا نجد ما يحدّثنا عنها من كتاب أو تمثال . فهل
من العقول ، إذن ، لعلم فطير مثل هذا ، ولمعرفة تمت في وقت قصير كهذه ولم تنضج بعد ،

أن يكون أكثر من ومضة من المعرفة الحقيقية للعالم حينما يفهم فهماً دقيقاً ويدرك إدراكاً شاملاً؟ إن معرفتنا ليست إلا قطرة بجانب بحر ؛ ألا وان البحر هو جهلنا . ومهما يكن من يقين أو من عدمه حول كثير من الأشياء ، فإن هذا القدر ، على الأقل ، يقيني - وهو أن عالم المشاهدة محاط بعالم آخر أكبر منه ، ولكننا لانعرف في الوقت الحاضر شيئاً عما يتصف به من صفات إيجابية .

تعرّف اللا أدريّة الوضعيّة نظرياً بهذا المبدأ ، ولكنها ترفض أن تطبقه على الناحية العملية . إذ تقول تلك النظرية ، ليس لنا من حق في أن نتوهم ، أو أن نفترض أشياء في ذلك الجزء الخفي من العالم ، لمجرد أن ذلك الوهم أو هذا الافتراض قد يبدو محققاً لأغراضنا العليا . فلا بد أن ننتظر دائماً قبل أن نعتقد حتى نجد البراهين الحسية المبررة للاعتقاد ، وإذا لم يكن لمثل هذه الأدلة من وجود ، فليس لنا أن نفترض فرضاً ما . ذلك طبعاً موقف سليم على وجه عام . فإنه إذا لم يكن للمرء غرض ما من وراء العالم الخفي ، وإذا كان لا يجد إليه من حاجة ماسة ، ولا يعنيه أن ينسجم أو لا ينسجم معه ، فإن خير الطرق وأحكمها بالنسبة له هو حالة الحياد وعدم الاعتقاد لا في هذا ولا في ذاك . ولكن الحياد ، على الرغم من أنه صعب المراس من ناحية نفسية ، هو كذلك غير ممكن التحقيق في هذه الحالة ، حيث إن الأمر الخير فيه أمر حيوي وعمل بالنسبة لنا . وذلك لأن الاعتقاد والشك ، كما يخبرنا علماء النفس ، أمران حيويان يستلزمان منا عملاً . فمثلاً ، طريقنا الوحيد للشك أو لرفض الاعتقاد في وجود شيء ما هو أن نستمر في حركاتنا وتصرفاتنا كأنه لا وجود له . فإذا رفضت أن أعتقد أن جو الغرفة أصبح بارداً ، فإني أترك النوافذ مفتوحة ، ولا أوقد فيها ناراً ، كما أفعل لو كنت أعتقد أن جوها لا يزال دافئاً . وإذا شككت في أنك من الأشخاص الذين لا يوثق بهم ، فإني أكتف عنك جميع أسرارى ، كما أفعل

لو علمت أنك لست محلا للثقة . وإذا ترددت في أن منزلي يحتاج أن يؤمن عليه ، فإني أدعه غير مؤمن عليه ، كما أفعل لو علمت يقينا أنه ليس هناك من حاجة للتأمين . كذلك إذا لم أعتقد أن هذا العالم عالم إلهي ، فليس لذلك من مظهر إلا الامتناع عن التصرف على أنه إلهي ، وليس لهذا من معنى ، ثانيا ، إلا التصرف بالنسبة للأمور الخطيرة المهمة كأنها ليست بالخطيرة ، أو التصرف على نحو غير ديني . من هذا يتبين لك أن عدم الفعل هو نفسه فعل في بعض الأحيان ، ولا بد أن يعتبر كذلك ؛ وإذا لم يكن الفعل من أجل شيء فإنه لا بد أن يكون ، من ناحية عملية ، ضد ذلك الشيء ؛ وفي جميع هذه الحالات ، لا يمكن وجود حياد تام غير متردد فيه .

وبعد كل هذا ، أليس القول بوجوب الحياد ، في حين أن ميولنا النفسية تؤدي بنا إلى الاعتقاد ، قولاً في غاية من الحماقة ؟ أو ليس القول بأنه لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أغراضنا النفسية وقوانا وبين القوى الموجودة في العالم الخفي مجرد يقين خاطيء لا دليل عليه ؟ فلقد برهن التنبؤ المبني على الاتجاهات والميول النفسية على صحة نفسه في كثير من الأمثلة الأخرى . أنظر إلى العلم نفسه ! فمن غير أن تكون لنا ميول نفسية تستدعي بالضرورة انسجاماً منطقياً ورياضياً في هذا العالم ، فإنه كان يكون من العسير علينا أن نذهب لنبرهن على وجوده بين ثنايا ذلك العالم الطبيعي الفج وخواتمه ؛ ويندر أن يوضع قانون علمي ، أو يتيقن بحقيقة ما فيه ، من غير أن يكون كل ذلك مسبوقاً ببحث ، غالباً ما يكون شاقاً ومضنياً ، ليرضى حاجة نفسية ويشبعها . ولكننا لا ندرى من أين أتت تلك الحاجات النفسية ، إننا نجد لها فينا حاسب ؛ وليس لـعلم النفس البيولوجي من مجهود نحوها إلا أن يضعها في دائرة واحدة مع « الاختلافات العرضية » ، موافقا في ذلك دارون . ولكن للحاجة النفسية إلى الاعتقاد في أن هذا العالم المشاهد ليس إلا مجازاً لعالم آخر أكثر منه روحانية وأبدية من القوة والسلطان على نفوس

هؤلاء الذين يشعرون بها مثل ما للحاجة النفسية إلى اعتقاد الاطراد في قوانين السببية والمسببية من قوة وسلطان على عقول العلماء الفنيين . واتقد برهن مجهود المتعاقب من الأجيال المختلفة على أن هذه الحاجة الأخيرة حق وعلى أنها صحيحة في الواقع ، فلماذا لا يمكن أن تكون الأولى صحيحة أيضا ؟ وإذا ما صح كل ذلك في العالم المشاهد ، فلماذا لا يصح في العالم الغائب ولا يكون دليلا على وجوده أيضا ؟ وباختصار ، من هو الذي يحق له أن يمنعنا من أن نشق في ميولنا ومطالبنا الدينية ونصدقها ؟ ليس للعلم ، كعلم ، أن يزعم هذه الساطة لنفسه ، لأنه لا يتحدث إلا عن الموجود بالفعل ، وليس له شأن بغيره ؛ وأما قول اللادريين « ليس لك أن تعتقد من غير أن تكون لك أدلة حسية قاطعة » ، فليس إلا تعبيراً (لكل امرئ الحق في أن يعبره) عن اتجاه خاص ورغبة شخصية في أدلة من نوع خاص .

ولكن ما الذي أقصده بالتصديق أو الثقة في مطالبنا وميولنا الدينية ؟ أتحمّل الكلمة معها نصريحا لنا في أن نرمم ما نشاء من أوصاف تفصيلية لعالم الغيب ، وفي أن نحرم هؤلاء الذين يرون غير ذلك من حقوقهم الكنسية ؟ إنها لا تعني شيئا من هذا القبيل ! فإن قوانا على الاعتقاد لم توجد فينا باعتبار الأصل ، لنوجد بها الأورثوذكسية والابتداع معا ، ولكن نعيش بها . وليس للوثوق في مطالبنا الدينية من معنى إلا أنه يجب علينا أن نعيش على ضوءها ، وأن نتصرف كأن ما تقترحه من عالم الغيب حق لامراء فيه . وإنه لحقيقة واقعية أن الناس يقدرّون على أن يحيووا وعلى أن يموتوا بمساعدة بعض العقائد الدينية من غير تحديد وتفصيل في جزئياتها . وإن مجرد اليقين بأن ذلك النظام المشاهد ليس هو النظام المطلق النهائي ، بل مجازاً أو ظلا ، أو مرحلة واحدة ظاهرة من عالم آخر كثير المراحل تكون الكلمة العليا والأخيرة فيه للعالم الروحي ، ويتصف مع ذلك بالبقاء والدوام — ذلك اليقين وحده

كان لأن يجعل الحياة تستحق الاستمرار فيها ، في نظر أمثال هؤلاء الرجال ، على الرغم من كل افتراض مناقض يقترحه المستوى الطبيعي المادى لذلك العالم الشاهد . فإذا أزلت ذلك اليقين من نفوس هؤلاء ، وجدت أن كل ما فى الوجود من ضوء وإشعاع قد اختفى من نظرم . وتأتى بعد ذلك غالبا تلك النظرة للحياة المتجهمة العابسة التى هى حالة الانتحار .

وهنا يأتى دور التطبيق بالنسبة لى ولكم . قد يبدو أكثر نوع من الحياة صرامة وضنكا لكل واحد منا هنا محتملا وموازيا لما فيه من متاعب إن لم يكن راجعا عنها ، إذا كنا متأكدين أن هذا التحمل وذلك الصبر آخذان فى سبيل الانتهاء تدريجيا ، ومؤديان إلى بعض الثمرات الطيبة فى عالم الغيب الروحى . ولكن إذا افترضنا أننا لا نقدر أن نتأكد من تلك الثمرة ، فهل معنى ذلك أنه ليس لنا أن نثق ، وأن الثقة أو التصديق ليست إلا أحلاما وخديعة من أحلام البله المغفلين ، أو ليست إلا مكانا يلجأ إليه الكسالى من الناس ، أو أنها ، بالعكس ، لاتزال اتجاها حيويا قويا ، لكل منا أن يتجه إليه وينغمس فيه ؟ إننا طبعا أحرار فى أن نثق وفى أن نصدق مانشاء ، مادام غير محال فى نفسه ، ومادما نجد من الأشباه والنظائر ما يؤيده . والآن ، كل ما يشهد للمذهب المثالى من الأدلة المختلفة يبرهن على أن العالم المادى ليس هو العالم المطلق ؛ وإن القول بأن حياتنا المادية كلها لا بد أن تكون مشربة بجو روحى ، ومختلطة بنوع من الوجود ليس لدينا الآن من القوى مانعرفه بها ، تمكن البرهنة عليه ، أيضا ، بقياس التمثيل على حياة الأليف من حيواناتنا . فكلابنا ، مثلا ، تسام فى حياتنا ، ولكنها ليست منها . إنها تشاهد فى كل لحظة جميع ما يظهر من حركاتنا وأفعالنا ، ولكنها لا يمكنها أن تدرك مغزاها . فلا تدرك مغزى حادثة ما ، حتى ولو كانت هى نفسها مسئولة عن الجزء المهم منها . فيعض كلبى غلاما آذاه ، فيطالب والده بتعويض . وقد يكون الكلب

بعد ذلك حاضراً في كل مرحلة من مراحل التحقيق ويرى الغرامة المالية تدفع ، ولكنه لا يدرك شيئاً من مغزى كل هذه الحركات ، ولا يمكن أن يظن أن له يداً فيها ؛ ولا يمكنه ، ككلب ، أن يعرف ذلك . وإليك مثلاً آخر كنت أتاثر به تأثراً بالغاً عند ما كنت طالباً في الطب : تصور حالة الكلب الموضوع على لوحة التشریح في معامل التجارب ، إنه مربوط على تلك اللوحة بصرخ ويئن من عمل المشرح ، ويرى أنه في عذاب وجحيم ، ولا يرى منفذاً من كل ما هو فيه ؛ ولكن هذه الحوادث التي تبدو له شيطانية قد أوجدها ، في كثير من الأحيان ، القصد الإنساني الذي لو علمه عقل الكلب وأدرك وجهة نظر الإنسان لاستسلم بشجاعة كما يستسلم الرجل الديني . فإن الحقيقة الشافية وتخفيف الآلام المستقبلية عن كل من الإنسان والحيوان لا بد أن يشتريا بالغالي من الثمن بكل من الإنسان والحيوان . وقد تكون تلك العملية عملية تخلص حقيقي ، وقد يكون الكلب في استلقائه على لوحة التشریح مؤدياً وظيفية أكثر أهمية وثمرة للنوع الإنساني من الوظيفة التي يمكن أن تؤديها حياته الكلبية ؛ ولكن هذه الوظيفة هي الوظيفة التي لا يقدر الكلب على أن يدرك كنهها من بين سائر وظائفه الأخرى .

دعنا الآن نرجع من كل هذا إلى حياة الإنسان . قد رأينا أن عالمنا لم يكن مدركاً للكلب ، لأننا ، بالنسبة له ، نعيش في عالين . وأما في الحياة الإنسانية ، فعلى الرغم من أننا لا نرى إلا عالمنا وعالمه الذي هو عالمنا ، فقد يكون هناك عالم آخر محيط بهذين العالمين ، ولكننا لا نراه كما أن عالمنا غير مرئي له ؛ وقد يكون الاعتقاد في ذلك العالم الآخر أهم وظيفة يمكن أن تؤدي في هذا العالم . ولكننا نسمع الآن أرباب المذهب الوضعي يقولون باستصغار واحتقار : « قد يكون ! وقد يكون ! ما هي الثمرة التي تجتنيها الحياة العلمية من تلك الاحتمالات ؟ » إنني أجيب بأن الحياة العلمية نفسها

ذات اتصال وثيق بالاحتمالات ، والحياة الإنسانية كذلك شديدة الصلة بها . وما دام للإنسان قيمة ما ، وما دام مُنشئاً ومبتكراً لشيء ما ، فإن وظائفه الحيوية كلها لابد أن يكون لها ارتباط وتعلق بالاحتمالات . فلا يمكن أن يتحقق انتصار ما ، أو يوجد فعل اعتقادي أو تنفيذ حركي دالة على شجاعة وقوة ، إلا وهي مبنية على الاحتمالات ومتعلقة بها كل التعلق ؛ وليس هناك من خدمة تقدم ، ومن عمل كريم يبذل ، ومن بحث أو تجارب علمية ، ومن كتاب معترف به ، إلا وهو يحمل الخطأ . وإننا ، حقاً ، لا نعيش من ساعة لأخرى إلا ونحن مخاطرون بأنفسنا وموقفونها مواقف يمكن أن تزل فيها . وغالباً ما يكون اعتقادنا السابق في غير المبرهن عليه من القضايا هو السبب الوحيد الذي يجعل تلك القضايا قضايا صادقة . فافترض ، مثلاً ، أنك كنت صاعداً جبلاً ، وأجهدت نفسك حتى وصلت إلى مركز لا يمكنك أن تنجو منه إلا بقفزة عنيفة . فكيف الخلاص ؟ اعتقد أن في مقدورك أن تقفزها ، وستجد في قدميك قوة فعلية على تنفيذها . ولكن إذا زعرت ثقتك من نفسك ، وفكرت في الأوصاف « الجميلة » التي سمعت العلماء ينعنون بها الاحتمالات ، فإنك سوف تتردد طويلاً حتى تهن أعصابك وتضطرب ، وأخيراً ، وفي ساعة من ساعات اليأس تقذف بنفسك فتسقط في الهوة . إن الحكمة والشجاعة في مثل هذا الحالة (التي تتصل بطبقة كبرى) في أن تؤمن بما يتناسب مع حاجتك ، إذ أن الاعتقاد هو الذي يقضيها . ولك طبعاً ألا تعتقد ، وستكون مصيباً في ذلك ، لأنك سوف تهلك ولا محالة . ولك أن تعتقد ، وستكون مصيباً أيضاً ، لأنك بذلك تنجي من نفسك . وباختصار إنك ستجعل أحد العالمين الممكنين حقاً وحقيقة واقعية بثقتك أو بعدم ثقتك ، وليس لكل واحد من العالمين في تلك الحالة وقبل أن تقوم أنت بدورك إلا احتمال الوقوع .

والآن يظهر لى أن السؤال المتعلق بقيمة الحياة هو سؤال خاضع لحالات شبيهة منطقياً بهذه الحالات . فإن الأمر هنا لا يتوقف إلا عليك أنت أيها الشخص الحى . فإذا استسلمت للتشاؤم من الآراء ، ثم توجت صرح الشر بالانتحار ، فقد رسمت صورة سوداء قاتمة . وإن التشاؤم ، الذى يعقبه فعل ليكمل منه لحق ، لا مرأى فيه ، بالنسبة لك ومن وجهة نظر مارسمت من عالم . لأن عدم ثقتك فى الحياة قد أزال كل قيمة كان يمكن أن يعطيها استمرارك فى الوجود لها ؛ ولقد برهن عدم الثقة ، كأحد الأسباب الممكنة لذلك الوجود ، على أن له قوة جبارة لا يستهان بها . ولكن افترض من ناحية أخرى ، أنك لم تستسلم لتلك الآراء القاتمة حول الحياة ، بل تمسكت بالرأى القائل بأنها ليست العالم المطلق النهائى . وافترض ، ثانياً ، أنك وجدت نفسك ينبوعاً طيباً كما يقول وردورث (Wordworth) « من الغيرة والحمية ، وكنت متصفاً بفضيلة أنك تعيش بناء على مبدأ وعقيدة كما يعيش الجندى بالقوة والشجاعة ، وكما تحارب البحارة بقوة فى قلوبهم وشجاعة بحاراً مضطربة هائجة مأثمة » . وافترض ، أيضاً ، أن شخصيتك القوية قد برهنت على أنك ند قوى لما قد يتكاثف عليك من شرور ومتاعب ، وأنت تجد فى هذا الجهاد مروراً عظيماً أكثر مما تجده فى الحالة السلبية من مجرد الثقة بالكل . أولم تجعل الحياة بهذا كله ذات قيمة ترغب فيها ؟ ليت شعرى ما الذى يمكن أن تكون عليه الحياة ، مع ما أنت عليه من استعداد لأن تلعب بها وتجاهد فيها ، إذا لم تجلب لك إلا جواً هادئاً ، ولم تدع لك مجالاً تلعب فيه قواك العليا ؟ وينبغى أن يتذكر أن التشاؤم والتفاؤل تعريفان محددان للعالم ، وأن استجاباتنا لذلك العالم وأفعالنا فيه ، مهما كانت صغيرة حجماً ، ليست إلا أجزاء من ذلك الكل ، وأنها لذلك تساعد بالضرورة على تكوين التعريف وتحديدده . وقد تكون هى العناصر الجوهرية فى تحديد التعريف . فقد يتغير توازن كتلة كبرى

بإضافة ما يزن مقدار الشعرة إليها ؛ وينعكس معنى الجملة الطويلة بإضافة ثلاثة حروف إليها وهي لام وياء وسين . فيمكننا أن نقول، إذن ، هذه الحياة تستحق العيش فيها ، لأننا نحن الذين نكيفها ونشكلها ، من وجهة النظر الخلقية ؛ وقد حزننا الرأي وصممنا العزم على أن نجعلها ، من تلك الناحية ، وبقدر المستطاع ، ناجحة .

قد افترضت ، عند ما كنت أتحدث عن المقائد التي تشهد لنفسها ، أن عقيدتنا في عالم الغيب هي التي تلممنا وتبث فينا هذا الصبر وتلك المحاولات التي تجعل عالم المشاهدة عالماً صالحاً لأن يعيش فيه الرجل الخلق . فعقيدتنا في أن هذا النظام المشاهد خير وحسن (ليس للخيرية والحسن هنا من معنى إلا الصلاحية والمناسبة لحياة ناجحة خلقياً ودينياً) تبرهن على صحة نفسها من حيث إنها معتمدة على اعتقادنا في عالم الغيب . ولكن هل يمكن أن يبرهن اعتقادنا في العالم الخفي على نفسه ؟ من بدرى ؟

مرة أخرى إنها حالة ممكنة ؛ ومرة أخرى إن الإمكانات والإحتمالات هي جوهر الحالة . ولست أدري لماذا لا يكون وجود عالم الغيب متوقفاً نفسه توقفاً جزئياً على الاستجابة الفردية التي قد يستجيبها الواحد منا للنداءات الدينية . وباختصار ، لماذا لا يقال إن الإله نفسه قد يجد سروراً وقوة حيوية في استقامتنا وإخلاصنا . ولست أدري قيمة للأصعب والجهاد والمشقات في هذه الحياة ، إذا دلت على ما هو أقل من ذلك . فإذا لم تكن هذه الحياة جهاداً حقاً ، وإذا لم تكن ثمرة الانتصار فيها ربحاً خالداً لا يكون ، فإنها لا تكون خيراً من رواية تمثل على مسرح خاص ينسحب منه من شاء أي وقت شاء . ولكنها تبدو لنا كأنها جهاد حق ، وكأن هناك شيئاً في العالم متوحشاً ، زبداً ، بكل مالنا من مثل عليا وعقائد وإخلاص ، أن نخضعه ونجعله

أليفا ؛ ولكن لا بد لنا أولا أن نجعل قلوبنا أليفة وأن نطهرها من الإلحاد والخوف ، لأن طبيعتنا قد تعودت على مثل هذا العالم الذى نصفه متوحش ونصفه الآخر أليف ونقى طاهر ، وانسجمت معه . وإن أكثر الأشياء عمقا فى طبيعتنا هو تلك النقطة الرطبة اللينة من القلب ، التى نعيش فيها وحدنا مع ما لنا من رغبات ونفور ، ومع ما لنا من عقائد ومخاوف . وكما أن المياه التى تتكون منها منابع الجداول تنبع من أحشاء الأرض شيئا فشيئا عن طريق ما فيها من شقوق وفجوات ، كذلك من تلك الأغوار البعيدة فى الإنسان والأعماق الخفية تتكون منابع كل أفعالنا الظاهرية وأحكامنا الخارجية . وتلك هى الأداة الفعالة التى تصلنا بطبائع الأشياء ؛ وليس يبدو لأى من القضايا الذهنية ومن المجادلات العلمية - مثل تلك الموانع والمعارضات التى يذكرها الوضعيون المتطرفون ضد عقائدنا - إذا ما قورنت بتلك الحركات الفعلية والواقعية للنفس ، قيمة فى الواقع ، وإنما هى ثرثرة لسانية . لأن الإحتمالات ، لا الواقعيات ، هى هنا تلك الحقائق التى يجب أن نتعامل معها وننظر فيها ؛ وهنا يقول وليم سولتر (William Salter) أحد أعضاء الجمعية الأخلاقية فى فيلادلفيا : « كما أن ماهية الشجاعة هى أن تخاطر بحياتك على احتمال ، فكذلك ماهية الاعتقاد هى أن تؤمن بوجود الاحتمالات » .

وكلتى الأخيرة لكم هى هذه : لا تخشوا الحياة ولا تخافوها . بل اعتقدوا أنها تستحق العيش فيها ، وسوف يساعد هذا الاعتقاد على إيجاد تلك الحقيقة . وإن الدليل « العلمى » ، على أنكم على حق قد لا يتضح لكم تماما قبل أن تقوم الساعة (أو قبل وجود مرحلة أخرى من الوجود يعبر عنها بذلك التعبير) . ولكن المجاهدين المؤمنين فى وقتنا هذا ، أو الموجودات الأخرى التى سوف تتحدث باسمهم هناك ، قد ينظرون إلى

ضعاف القلوب الذين رفضوا أن يؤمنوا ويجهدوا مثلهم ، ويرددون لهم تلك الكلمات التي وجهها هنري الرابع ، بعد انتصاره الباهر في إحدى المعارك ، إلى كريلون (Crillon) البطيء المتأخر عن المعركة، وهي : « لاحظْ لك معنا أيها الشجاع كريلون ! فقد حاربنا وحدنا في أركويز Arques ، ولم تكن أنت هناك معنا » .

انتهى طبعه في رجب ١٣٦٥ هـ
يونيه ١٩٤٦ م

(استدراك)

في السطر السادس عشر من صفحة ٤٧ ، اقرأ : ولقد اكتسب شهرته
وفي السطر الأول من صفحة ٩١ ، اقرأ : الظاهرة العنود
